الفصل الثَّاني

صف من الصُّور، عددها ست، جذبني إليها حنين. المبتدأ عروسان شابان، يحتفلان بليلة العرس. صغيران جميلان. أكثر الجميع شبهًا ب"فايز"، تتعانق الأصابع في رهف، وتبرق العيون منتشية بسكرة حب، وعلى الشِّفاه تتلألأ ابتسامة صافية، مشرقة، فرحة بالحياة. تتلوها صورة أيضًا لهما، ما جد أنَّ بطن السَّيدة ممتدة متكورة، منبعج ظهرها متقوس، من الحمل في شهوره الأخيرة. وفي الثَّالثَّة: السَّيدة تحمل طفلًا، ورغم صغر سنه، يبدو منتبهًا، يعلم أهمية الحدث: تتسع عيناه عن آخرهما، وتفتر شفتاه الصَّغيرتان عن ابتسامة بريئة جميلة، كان جليًا أنَّه "فايز" صغيرًا. الرَّابعة: الطِّفل أطول قامة، وأكثر شبهًا، يقف بينهما. الخامسة: شاب يافع بجوار السَّيدة، التي ظهر عليها الكِبر سريعًا، وخط الشَّيب شعرها الغزير، وغزت التَّجاعيد وجهها، أمَّا الزَّوج فغير موجود، مكانه فارغ، من الحزن الرَّابض في العينين في هذا المشهد: أظنه قُبض. أمَّا السَّادسة: فقد خط الشَّيب فودي "فايز"، أضحى رجلًا أربعيني العمر، يقف بمفرده في جانب الصُّورة، عيناه زائغة، غارقة في حزن، تنطق بكثير كلام، يبدو وكأنَّه ينتظر أحدًا من المفترض أن يجيء.

شيء من ألفة وتأثر بدأ يغزوني تجاهك يا "فايز"، أيها البائس الوحيد المسكين، فأنت أنا، وأنا أنت! ولا مهرب لكلينا من الآخر!

وجعلت أدور على الصُّور كلما هاجمني الفراغ، وكلما فرغت عاودت الكرة، حتى حفظت كل الوجوه، ومللت.

عيناك يا "فايز"، بهما طيبة، وثقافة، وعلم. وجهك ملائكي، لا يبدو كوجه الرِّجال ذوي القباعات بقوة شكيمتهم، وحدة طبعهم، ولا كالخادم العجوز "ياسين"، بالمكر في عينيه. فما الدَّافع لقتلك؟! أهو الطَّمع في السُّيوف المطهمة

بالذَّهب والأحجار الكريمة, والأطباق الثَّمينة المزخرفة, والبنادق الأثرية, ونقودك التي سُرقت وكنت تخبئها في خزينة القصر؟!

أنت غني يا صاح, مظاهر التَّرف في كل مكان, كلما أدرت نظري لا يحدوني سوى النَّعيم والرَّفاهية. قصر فخيم, أثاث فاخر, وأرى من الشُّرفة الشَّرقية سيارتك المرسيدس آخر موديل, كما لديك خادم ماكر عجوز يُدعى "ياسين". ومهلًا: "هل يفي هذا الكهل "ياسين" برعاية شئونك, وهذا القصر الشَّاسع مترامي الأطراف؟!" بالتَّأكيد أنت تقدر, وأنت تملك كل هذا الثَّراء, أن تستدعي من أمثاله الكثير, أصغر سنًا وأشد بأسًا!

"فما الدَّافع لقتلك؟!"

"ومن قتلك؟!"

ولا أدري ماذا أفعل, وبماذا أبدأ, وكيف أصل لقاتلك؟! وذاكرتي خواء, ليس بها سوى ريح تعوي باسم "فايز", يتردد صداه؛ فيصُمَّني عمن سواه! ولا سواه أعلم.

ومهلًا, ليس الأمر كما ظننت, أمر الذَّاكرة ما أقصد, هي ليست خواءً, وليست صفرًا كبيرًا رابضًا في ذهني, يعجزني ويرهقني. ثمَّة أشياء نظرت إليها عرفتها, وخبرتها دون الاستدلال من أحد, وقد طرقني الأمر دونما أدري: فهذا "طوسون" الجد الأكبر الَّذي قدم من تركيا حبًا في مصر, علمت قصته كاملة من حكايته المدونة ببطن كُتب التَّاريخ, والتي طالعها "فايز" مرارًا, وتحدث بها كثيرًا, ومحل إكبار وإعجاب في قلبه! وهذه صور أبنائه وأحفاده, وتلك الرَّابضة بالأسفل هي سيارة "فايز" المرسيدس, الآخر طراز, والتي اشتراها منذ شهور قليلة! لقد علمت بكل هذا دونما معلومة من أحد! كما علمت ماهية الكثير ممَّا حولي. والآن, الآن, ودونًا عن أي وقت مضى, أشعر بذاكرتي مُتخمة, على عكس الخواء, مُتكدسة بأمور وأشياء, ولكنَّها متكلسة, في حالة صلبة, كأنَّها جلمود صخر. ذاكرتي بحاجة لحافز ما, مثير يصهرها من حالتها الصَّلبة إلى نبع معرفة سائل عذب, يروي أرض الجهل التي أخطو, علها تُزهر بالحقيقة التي أبحث. مثير غامض لا أعلمه, ولا أعلم كُنته, يقدر أن يفك طلاسم اللُّغز الَّذي أعيش. شيء مثل البرق السَّاطع يشرخ لفائف الظَّلام, ويكون بمثابة لفح النَّار,

يقدر أن يُذيب ثلوج قريحتي.

ومضة المعرفة تجتاحني بلا ترتيب, ودُونما اتفاق, والدَّليل ما علمت, وما خبرت. حقًا لم أعلم اسم "فايز" من تلقاء نفسي, وعلمته من حديث ذوي القباعات, رُبما لأنَّ الذَّاكرة كانت في بكارة اليقظة, وليد بالكاد يتنفس. وحقًا لم أعلم حقيقة ذوي القبعات في البدء, بيد أنني فجأة علمت, ومن نفسي, فهم رجال البحث الجنائي, يتعقبون الأدلة ويبحثون عن طرف خيط يقودهم إلى الجاني. أمَّا الخادم "ياسين" الماكر, فإنِّي علمت اسمه من تلقاء نفسي, لم يخبرني به أحد, ومتيقن أنا من صفة المكر فيه, ليست نظرة عينيه فحسب ما وشت بالمكنون, ولكنني أشعر بنفسي أعلمه وأخبره جيدًا, وكأنَّني أعايشه منذ زمن.

والآن, وبما اكتشفت في نفسي من ذاكرة مراوغة, تعلم ولا تعلم, وبما أملك من معلومات واهية, كاسمك يا "فايز", وتاريخ جدك "طوسون", وصور عائلتك الأقدمين, وأبيك وأمك: فهل تظنها معلومات كافية لأجد قاتلك؟! ومن ثُمَّ الفتك به, والقصاص لك! أتظنني قادر على حشو واحدة من بنادقك العتيقة, المُزينة جدران حوائطك, وقنص قاتلك كما قنصك؟! أُمسك بسيف عاجي المقبض, من الزُّمرة المصفوفة على الحائط, وأغرزه في قلبه بطعنة نافذة, ليتضرج في دماءه, كما تضرجت في دماءك, ويأخذه الموت كما أخذك!

أكنت تعلم بقدومي – يا صاح- فهيأت لي أدوات الانتقام, ورتبتها بهذا الشَّكل البهي, تدفعني وتغريني على استخدام إحداها؟!

كم أنت واهم يا صاح!

من أنت يا "فايز"؟! وما يُجبرني على العيش في هذه المأساة؟! وأنا شبح ما زال يستحلب الذَّاكرة! أيُجدي معي السُّم, فأتجرع حسوات, تخرج بي من هذه الحياة بكل عذاباتها؟! أُطلق على رأسي طلقة من بنادقك! أطعن قلبي طعنة نافذة من سيف مطهم! البشر إذا ما أرادوا المغادرة, فالطَّريق مُعبد, لا صعاب فيه البتة, أمَّا وإنِّي شبح, لا يأكل ولا يشرب, ولا دم فيه يُراق, فكيف الخلاص؟!

ألا توجد تعويذه أتلوها فأحترق كما الجان, وأنتهي من حياة لا أريدها, وانتقام لن أقدر عليه؟!

وأجول، وأجوب بين الأروقة والحجرات المغلقة، أتسكع بلا هدف، تقودني قدماي إلى المكتبة. صفوف من الكتب تملأ فراغات الجدران الأربع، ترتفع من الأرض إلى مشارف السَّقف. ثمَّة ضوء يبرق بذاكرتي صلبة المحتوى، ينقشع له شيئًا من العتمة المعشّشة بداخلي. أرى "فايز" في هذه الرُّومانسية الحالمة، يجلس خلف المكتب الضَّخم، يُقلب صفحات كتاب استلب العقل والقلب، وأخذه من الدُّنيا. يبتسم غالبًا، وعلى فترات يضحك ضحكة رتيبة وقورة، وأحيانًا يتملكه العبوس والشُّرود ويقطب جبينه، يتمتم يُخاطب العدم، وكأنَّه في حضرة كبير الفلاسفة أو أحد المفكرين العظام.

يشدني الحنين إلى الضَّوء الشَّارد، بَرَقَ كما العادة بلا موعد، فأضاء قبس نور في عتمة التَّخبط، للذكرى التي انحدرت من جبل الثَّلج، وانسابت قطرة ماء عذب في صحراء قريحتي. أجد نفسي بمحض رغبة خلف المكتب العتيق، في ركن المكتبة القصي المنعزل عن الرُّفوف وصفوف الكتب. أتشمَّم رائحة "فايز"، أملأ فراغه، أبتسم، أقطب، أخاطب العدم، أقلد حركاته وسكناته. وأندس دودة نهمة بين المراجع والكتب. أقرأ. وأقرأ. أحشو ذهني بكل العلوم والمعارف: أدب، فلسفة، سياسة، طب، هندسة. فرُبما كلمة أو جملة أو معلومة تصهر جبل الثَّلج بداخلي. هذه الذَّاكرة اللَّعينة التي يضجرني جمودها، سأحشوها بالمزيد حتى تفيض وتئن من الزَّخم، بأي شيء، وكل شيء، سأوقد بها نار العلم لتنصهر وتفور وتتحول إلى حمم، سأتجرع كل هذه الكتب حتى الثَّمالة، وأتجشأ بنور العلم والمعرفة، لن أدع عتمة الجهل توجعني بعد اليوم.

خطر لي أن أبحث بالقبو، حيث كنت أختبئ أيام رجال البحث الجنائي، فقد أجد ما يفيدني، بعدما أنهكت نفسي بحثًا في حجرات القصر.

الرَّائحة عطنة، والهواء مُشبع بالرَّطوبة، كم سعدت لكوني لا أتنفس مثل البشر، أنا فقط أعلم بطبيعة ما حولي، وهذا المكان من هيئته كان مهجورًا منذ زمن، فلا بصيص ضوء، ولا نافذة مُشرعة تمرر نسمة هواء، وبيوت العناكب في كل مكان، تنشر شباكها في الأركان، وبين ركام الأثاث، والأرضية يعلوها أكوام تُراب، وكأنَّ قدمًا لبشر ما وطأتها منذ زمن بعيد. الخوف فقط ما يُخيم، ما يسكن الزَّوايا، غير أنني الآن أربط جأشًا، والضَّوء لا يعنيني، أبغضه، والظَّلام

بغيتي وملاذي. علي أن أتذكر دائمًا: أنني شبح, يقدر أن يُخيف ولا يخاف, أن ينشر الرُّعب ولا يرتعب.

***

الشَّجرة الكبيرة المواجهة للقصر مبيت جيد للعصافير, مع قدوم بشائر الظُّلمة يهلون عليها, وحدانًا وزرافات. الشَّجرة الكبيرة المواجهة للقصر شجرة "كافور" عتيقة, عملاقة, وارفة الظِّلال, تقع عن يمين بوابة القصر من الخارج. من غرس عودها الغض هو أحد أبناء "طوسون" الجد الأكبر للعائلة العريقة, كان باشا, أخذ شغفه بالزِّراعة عن أبيه المحارب الَّذي أقعده العرج. يعشق أشجار الكافور تحديدًا, يحب كونها سامقة, ريانة الغصن, ضاربة الجذور, كثيفة الورق, مخضرة يانعة. وورد عنه, أنَّه وصفها: بأنَّها ابنة التُّربة المصرية, فهي أكثر الأشجار انسجامًا مع البيئة في مصر, بجوها وشمسها ونيلها, وهي الأقرب شبهًا لطبيعة المصريين الصَّبورة المسالمة.

غرس الباشا نبتتين, واحدة عن يمين البوابة, والأخرى عن اليسار, ونمت وترعرعت نبتة اليمين, وهزلت واندثرت نبتة اليسار, وعبثًا حاول الرَّجل غرس عودًا آخر, ففي كل مرة يحدث أمر: النبتة تموت من حالها, يقتلعها أحد المارة, يقصفها أحد الغلمان, هو نفسه ارتطم بها ذات مرة "بالكارتة" فاقتلعها.

وتوفى الباشا, الجد الكبير, دونما يفلح في زرع شجرة "كافور" جهة اليسار, لتعشش على البوابة, مع تلك التي صارت شجرة وارفة في اليمين. كانت بغيته أن تتشابك فروعهما وتتداخل: فيعطيا شكلًا جماليًا متكاملًا لمدخل القصر. وظل المدخل وطوال عقود, لا يؤانسه إلا هذه الشَّجرة الوارفة العملاقة الوحيدة, وقد تشعبت فروعها الغليظة وامتدت, وظللت بيت الجنايني القابع بالجوار, ومالت أغصانها الفتية, وتدلت أوراقها الغضة النَّدية على سطحه الخرساني.

وبقي المشهد على هذا الحال, يصفه الجد الرَّاحل في أيامه الأخيرة بالنَّافر, يفتقد الاتساق والانسجام, كما امرأة جميلة بعين واحدة, أو صلعاء. كان الرَّجل مولعًا باكتمال اللَّوحة, وتضافر عناصر الجمال, ولكن العناد الَّذي لاحقه, والمرض الَّذي ألمَّ به, وجعله يستشرف قرب المنية, ألقي في روعه

الاستسلام، وأنَّ الحياة التي هو راحل عنها عمَّا قريب، لم يعهدها يومًا لوحة مكتملة الجمال، دومًا هي فجة بالنَّقص، دومًا يفتق روعتها رغبة عصية متمردة تأبى أن تتحقق، فهو الثَّري صاحب الجاه والمال، لم يسلم يومًا من المرض.

ولم يعبأ اللَّاحقون بما شغل السَّابقون، حدث فقط أن نشاز المشهد جعل أحدهم يفكر في اقتلاع شجرة الكافور من الأساس، لأنَّ الصُّورة التي تصنعها "بلدي، وسوفاج"، على حد قوله وتعبيره، ولكنَّه لم يفعل، فهذه الأجيال المتعاقبة من نسل "طوسون" باشا، من البشوات والبكوات، لم تكن نشأتهم المرفهة لتجعلهم من ذوي العزيمة في شيء، مثلما كان جدهم الأكبر "طوسون"، الجندي الفقير الَّذي حصل على "البشوية" وبني القصر وامتلك الأموال الطَّائلة بحد سيفه وجسارة قلبه. هؤلاء النَّفر من الأحفاد آتوا إلى الدُّنيا ليرثوا ويتنعموا دونما أدنى مجهود، فلماذا العزيمة وما يعكر صفو الخواء المتربع فيهم! العزيمة تغرس جذورها وتنمو في قلوب البسطاء من العوام، حيث الهدف بعيد المنال، وسلك الطُّرق الغير معبدة يحتاج لصبر ومثابرة. والمال والسُّلطة لم يكونا ليدعا أحدهم يشغله أمر لوقت طويل، بالكاد يمر بذهنه؛ فتطفر في وعيه رغبة التَّحقيق؛ فإمَّا أن يحققه في التَّو، أو في الصَّباح يكون قد تبخر وتلاشى من الذِّهن. وفي أمر الشَّجرة، كان أمر القطع قد مر في ذهنه مرور الكرام، وسرعان ما طمره النِّسيان. لم يكن أكثر من السِّياحة والرَّحلات والحفلات واللَّهو ما يشغل هؤلاء الخلق.

وقامت ثورة يوليو، وتغير كل شيء، وأمَّمت الثَّورة أملاك العائلة العريقة، ضاربة الجذور إلى الجد الأكبر "طوسون" باشا، لم تترك سوى هذا القصر ليعيشوا فيه، يسكبون الدَّمع بين جدرانه على ما فات وجرى.

كانت الثَّورة بمثابة انتكاسة كبرى، أطاحت بكبراء البلد على حد سواء، لم تترك واحدًا في أنحاء المعمورة إلا وأصابته في الصَّميم، ومن مغبتها أن هاجر الكثير من البشوات والبكوات إلى تركيا وأوربا، ومكث من مكث يحاول رتق ما انفتق، يربطه حب متجذر بالبلد. ونجح بالفعل جد "فايز" في تجارة كان قد بدأها بعد الثَّورة، وذاع صيته من جديد، واستطاع أن يَخْلُص بالقصر من كافة ورثته، ليؤول من بعده لابنه الوحيد "معتز"، والد "فايز". بيد أنَّ

"معتز" جاء رهيفًا مُغايرًا، يهوى الشِّعر والأدب ولا تشغله التِّجارة مثقال ذرة. من حافظ على الإرث الَّذي كونه الأب هو "جيهان" ابنة العم وزوجته، عضت عليه بالنَّواجذ لتحفظه لابنها "فايز" من انفلات أبيه وهواه.

وطوال الأيام والسِّنين، وشجرة الكافور تنمو، صنعت هالة هائلة منتظمة من الاخضرار، يخطف مشهدها العيان، ولا يظهر لها باطن بسبب كثافة الفروع والأوراق، تبدو للرائي عالم مستقل، يُسمع وشيشها وشقشقة طيورها المغردة بالبعيد، تموج داخلها حيوات مختلفة لحيوانات وطيور شتى؛ فالقرادين والعصافير والبوم والغربان، تتخذ بجوفها أعشاشًا ومسكنًا، والفئران والثَّعابين والقطط تبحث عن البيوض والصِّغار. هذه الشَّجرة هي ما اتخذها القاتل ملاذًا حتى واتته الفرصة، واقتنص "فايز". كان يكمن على هذا الغصن الضَّخم المتدلي على بيت الجنايني، وعلى سطح البيت تناثرت أعقاب سجائر "المارلبورو"، وتكوعت الطَّلقة الفارغة التي عثر عليها رجال البحث الجنائي.

ومن بعد ولوج البوابة الحديدية الكبيرة، يستقبل الرَّائح طريقًا مرصوفًا وسيعًا، مُهد لتمر عليه سيارات العائلة "الكاديلاك" الضَّخمة بأريحية، إلى حيث ساحة انتظار كبيرة. وعن يمين الطَّريق ويساره، ترامت حديقة غناء، عجت بأشجار الموالح والمانجو والعديد من ألوان الزُّهور ونباتات الزِّينة، وإن نالتها يد الإهمال في السِّنين الأخيرة، تحديدا بعدما توفيت "جيهان"، والدَّة "فايز". وتلتف الحديقة من حول القصر، وتنتهي بمحاذاة السُّور الكبير الَّذي يُطوق المكان في شكل مربع متساوي الأضلع، محيطًا بداخله القصر العتيق القابع في المنتصف رزينًا كما الشُّيوخ.

وبيت الجنايني صغير أنيق، مكون من حجرتين للمبيت، وحمام، ومطبخ، ينفتح جميعهم على صالة صغيرة، تتسع لعدة كراسي خيزران، تتوسطهم منضدة صغيرة. تعاقب في سُكنى هذا المنزل الصَّغير خلق كثير، منذ تشيد القصر، عملوا جميعًا في العناية بالحديقة. عائلات كُثر سكنوا هذا المبيت، الرَّجل منهم كان يأتي بزوجته وأبنائه، ليعملوا جميعًا في الحديقة، قَدِموا بداية من النُّوبة وأسوان، مرورًا بمحافظات الصَّعيد، وصولًا إلى الدِّلتا. وعمل في خدمة القصر بوجه عام، أناس من كافة محافظات القطر المصري، حتى أن

بعض الخدم جاءوا من السُّودان, أيام كانت مصر والسُّودان مملكة واحدة تحت حكم الملك.

صغار الخدم كانوا يبيتون في حجرات صغيرة متجاورة, بالقبو الموجود أسفل القصر, جُهزت لهم, وحجرات القبو الأخرى جُعلت للمخزون والغسيل, أمَّا كبار الخدم, ممَّن لهم الأمر والنَّهي وإدارة شئون القصر, فلقد كانوا يبيتون بأعلى القصر مع البشوات والبكوات, خُصصت لهم حجرات مصفوفة مجاورة للمطبخ, بالدَّور الأول.

ومر الزَّمن, وتغيرت الدُّنيا, ولم يبق بالقصر سوى هذا الخادم العجوز, "ياسين", تخطى السَّبعين بعامين, وله من العمر في القصر ما يربو عن الأربعين. قديمًا كان يحيا مع صغار الخدم بالقبو, أيام السَّيدة الكبيرة, التي لم ترتح يومًا لنظرات عينيه, وكثيرًا ما وصفت نظراته بمكر الفلاحين, يمنعها عن طرده تعلق "فايز" به, فقدومه للقصر تزامن مع مولد الابن الوحيد, وكان "ياسين" هو المرافق ل"فايز", أثناء لعبه وتجواله بالقصر والحديقة. ولمَّا توفيت السَّيدة الكبيرة, حدثت الطَّفرة الكبرى التي يتمناها أي خادم من شاكلة "ياسين"؛ انتقل "ياسين" من قاع القصر طافيًا إلى السَّطح, فلقد رُقي من قِبل "فايز" إلى رتبة رئيس الخدم, أرقى الأوضاع التي من الممكن أن يحلم بها أحدهم هناك يومًا, ليسكن "ياسين" أخيرًا في حجرة فخيمة بالدَّور الأول.

هذه التَّرقية الكبيرة التي حصل عليها "ياسين", كانت تقدر أن ترتفع بالرَّجل إلى عنان السَّماء فرحًا وزهوًا, غير أنَّ الحزن الشَّديد الَّذي ألمَّ به وعصف بعقله, في ذلك الوقت؛ أطفأ كل زهوة, وطمر كل فرح. حادث مقتل ابنته "طاهرة" الشَّنيع, والحزن المأسوي الَّذي احتل قلب الخادم العجوز؛ جعل "فايز" يتعاطف معه كثيرًا, ويقربه إليه أكثر.

وتغيرت الدُّنيا أكثر وأكثر, وخلا القصر من جميع الخدم, غادر من غادر, وكبر من كبر, ومات من مات؛ إلا "ياسين" الَّذي لم يعد له أحد في الدُّنيا, بعدما فقد ابنته الوحيدة. يعلم "ياسين" أنَّه لو طلب من "فايز" المبيت في حجرة علوية, من الحجرات التي كانت للبشوات والبكوات يومًا, ما اعترض الشَّاب. لم يشعره "فايز" أبدًا, أنَّه ثمَّة خادم وسيد يعيشان سويًا في القصر, لم يكن

الشَّاب لديه عقدة العظمة يومًا, وكان هذا في عُرف "ياسين", مؤخرًا, غرابة أطوار فارغة, إن لم يكن جنونًا صريحًا, فالسَّيد يجب أن يظل سيدًا والخادم خادمًا, ولو كان "فايز" مثل باقي أسياد القصر الذين عاصرهم, بلا فصام بين واقعه وشخصيته؛ ما حدث ما حدث, وما ماتت "طاهرة".

وبعد مقتل "فايز", لم يعد "ياسين" يدخل القصر, يقول أنَّ الخوف يمنعه, وقرر أن يترك حجرته الفخيمة, ويسكن بيت الجنايني, هو فيه طوال النَّهار, ومنه يستطلع ويتابع حال القصر, وإذا ما جنَّ اللَّيل؛ ذهب ليبيت بشقته الصَّغيرة على سطح عمارة نائية منزوية على أطراف المدينة, كان قد اشتراها منذ زمن تحسبًا لمكر الأيام.

***

«معتز» قُبض من نحو عام, وخلا القصر سوى من «فايز» والأم «جيهان». تقف «جيهان» بجوار السَّيارة «الشُّيفرولية» برفقة «فايز» ذو الخمسة عشر ربيعًا, تنتظر السَّائق الَّذي ألمَّت به وعكة مفاجئة, وهو الَّذي سيقلهما إلى الإسكندرية لتغيير جو الحزن, والهرب من كآبة الحياة.

نثارات الشَّيب في مِفرق الشَّعر, على أشدها في الفودين. هالتان غامقتان أسفل عينيها, وأخدودان عميقان يبدأان من أرنبة الأنف, ويلتفان حول الشَّفتين الممتلئتين, وبعض النَّمش والتَّجاعيد الخفيفة تصنع خرائطًا متفرقة هنا وهناك؛ هذه التَّفاصيل ما تمنح «جيهان» عمرًا إضافيًا على عمرها, يزيد عن العشر سنوات. هي بالكاد على أعتاب الأربعين, ورغمًا عن ذلك مُسحة الجمال واضحة لا تخفى, بوجهها المستدير المشرب بحمرة خفيفة على الخدين.

السَّيدة أصولها تركية ضاربة في الزَّمن, تعود هي الأخرى إلى الجد «طوسون», من ذلك الصِّنف الأرستقراطي المعتد. جُل ثقافتها واهتمامها منصب في تتبع الأعراق والأنساب. بارعة في حساب المسافات التي تفصلها بالنَّاس. تضع نُصب أعينها في تفاعلها الإنساني مع البشر حجمهم وقدرهم الاجتماعي.

من دونها من البشر أشباه عبيد, وهي السَّيدة صاحبة الأمر والنَّهي, يأتمرون بأمرها ويرضخون لإرادتها, لا شفقة ولا تهاون في الأمر, يتبلور ذلك جليًا في

علاقتها مع خدم القصر، أدنى الطَّبقات الاجتماعية التي تعلم من بني البشر، يعلوهم قدرًا العاملين بالمصنع والموظفين بالشَّركة، تمنحهم بعض الأهمية بتدرج دقيق، كل حسب مكانته، ولكنَّها أبدًا لا تعرف التَّباسط. تأمر؛ فيأتمرون، وتنهي؛ فينتهون. هكذا علمتها الأيام، وحنكتها التَّجارب، لتصير قوية جسورة، صاحبة أمرونهي.

أمَّا أولئك الخلق، المصنفون من طبقتها الأرستقراطية المرفهة، المنعمة في الغنى والثَّراء- فهي بينهم طاوس منتفش الرِّيش؛ شامخ الأنف، زاهي الألوان، مشرئب الهامة. لم تُرى يومًا طوال حياتها بغير هذا المظهر الطَّاووسي المتباهي. لا تكترث لكون بعضهم، أوغل منها أرضًا وأوسع ثراءً، ولا تعدهم مطلقًا من درجة قد تعلوها ولو قليلًا، فما حاكته الأيام في طباعها من صلف وإحساس بالذات يجعلها تضرب عرض الحائط بمثل هذه الفروق. ولو تحسبت مع من دونها، فهي استثناء بين من يعلوها.

«جيهان» شامخة، معتزة، وبخلاف القوة التي يمنحها المال، فهي وتد، جبل صامد، مهما تعاقبت عليها الخطوب، وتآمر عليها الدَّهر. فأبدًا لا يظهر ضعفها، ولا تنكسر شوكتها. دائمًا ما تظهر قوية متماسكة، رغم ما قد يعتمل بصدرها من أعاصير وبراكين وحمم. أكسبتها الحياة قوة إضافية، جعلتها تُكشر عن أنيابها، وتخمش بمخالب قطة شرسة، وجه كل من يحاول أن يقترب من منطقة نفوذها. كانت قد تلقنت الدَّرس جيدًا، رغم أنَّها لم تواكب المأزق الكبير، فهي لم تعش ما ألمَّ بالعائلة من مغبة ثورة يوليو، حينها كانت ما تزال في عالم الغيب، ولكن ما رأته من انكسار وهزيمة، يطفحان بشكل موجع على وجه أبويها، جعلها تدرك حجم الفاجعة التي عاشاها، وتقرأ حقيقة ما يعتمل بقلبيهما، ويجيش بصدرهما، رغم البسمات الباهتة التي لم تغادر شفاههما قط، فهما أبناء العز، يعيشان في شقة بائسة صغيرة على تخوم القاهرة. مصر التي كانت لهما ولذويهم يومًا. واخترق وعيها ووجدانها، رغم حداثة السِّن، خبرات ونتائج كبرى، لا تجود بها الحياة إلا بثمن باهظ مدفوع مقدمًا؛ لتكتشف أنَّ من أشد عذابات الحياة ونواكب الدَّهر؛ الفاقة بعد غنى، والعوز بعد بذخ، والدِّنو بعد علو.

في كل مرة تمر بالأبوين ضائقة, يجذبهما ثقل هائل إلى جُب الماضي الجميل الهالك؛ فيتعذبا أضعافًا مضاعفة. والذَّاكرة اللَّعينة لا تمل التَّعذيب بتفاصيل ما فات, وودا لو تخلصا منها بلا رجعة, فيعودا بيض النُّفوس, ويرضيا بالأمر الواقع, ويعيشا دونما التفات لماض ونعيم منصرم.

الأمل بقعة ضوء في حُلكة الحياة, على هداه يظن البائسون أنَّ الشَّمس على مشارف الأفق, تحث الخطى نحو الوجود, وأنَّ اللَّيل زائل, وأنَّ ما هم فيه فائت منصرم, وغدًا يطفون من القاع إلى السَّطح, يتنسمون نسائم الحياة الحق. هذا الأمل, بمعناه المتفائل هذا, لم يعد له وجود قط في حياة أبوي «جيهان» الجديدة. الأمل في استرجاع ما قُنص, كان باهتًا خافتًا في البدء, ومع الأيام ضاع وانمحق, فالأب من تلك الطَّائفة العالة على الموروث من تِركة الأجداد؛ عاش في نعيمه, وتمرغ في خيره, وعندما ذهب النَّعيم ذهب كل شيء, وفي أذياله الأمل في العودة, وأي أمل. ولم يبق سوى أطياف الذِّكرى. ودائمًا وأبدًا, والذَّاكرة منبع الألم, تنخر, وتلسع الرُّوح الموسومة بالوجع.

«جيهان» الابنة الوحيدة لأبويها, وهي أيضًا ابنة عم «معتز», والزَّوج مستقبلًا. والعم بخلاف الأب, فلقد كان الرَّجل من ذوي الإصرار والعزيمة, حباه الله بعقلية تجارية فذة, فاشترى مصنعًا للأحذية, واجتهد وتوسع, صانعًا بنفسه ولنفسه مستقبلًا جديدًا, لا يتكئ على ماض, ولا يرتكز سوى على جهده ومهارته. وضم أخيه وزوجه وابنتهما في كنفه, وزوّجَ «معتز» ابنه الوحيد من «جيهان» ابنتهما الوحيدة, فكانت هذه الزِّيجة, وما تحقق من رخاء بسبب تجارة العم, انتصارًا لها ولأبويها المسكينين من الفاقة التي نخرت الكبرياء في تلك الفترة العصيبة من تاريخ مصر, وسببًا قويًا ل»جيهان» لأن تتمسك بكل نجاح حققه العم, فوقفت بجواره وساندته, أكثر من «معتز», الَّذي لم تكن له عقلية أبيه التُّجارية. لقد كان الشَّاب شاعرًا يحب الشِّعر والأدب, يقضي جُل وقته في المكتبة, بين صفوف الكتب, يقرض الشِّعر وينهل من صنوف المعرفة.

وما لحق ب»معتز» من موت مفاجئ, في ظروف خاصة, كان ضربة موجعة, جعل عقلها يدور وتفقد الرَّغبة في الحياة. ما أخرجها من أزمتها بخلاف شخصيتها القوية هو ابنها «فايز», هذا الصَّبي الَّذي بالكاد على أعتاب طور

الشَّباب. تراه مرهف الحس مثل أبيه, يتعلق بالخدم ويحبهم زيادة عن الحد, يبكي لأتفه الأسباب إذا ما رأى أحدهم يتأذى, أو لحق ضرر بخادم أو سفرجي. خافت عليه من رهافته تلك, وأنَّ أمثاله تلوكهم الحياة وتطحنه تحت ضروسها بلا شفقة ولا رحمة, ولا تعتد بوجودهم من الأساس. الحياة تعتد بذوي الشَّكيمة, من يسلب حقه من بين فكيها بمخالبه وأسنانه, تدوس وتسحق من دون ذلك, ولهذا وحده انتفضت من كبوتها. حقًّا مر عام كامل, جرفتها تيارات الحزن, وتقاذفتها أعاصير اليأس, واحتاج منها الجرح الغائر وقتًا ليلتئم, ولكنَّها في النِّهاية قاومت ونهضت. وجعلت تتناول الحياة بقلب لا يرغبها, ولكن بعزيمة من لديه مهمة حتمية عليه أن يفرغ منها, وأن تُسلِّم «فايز» زمام الأمور وهو منتصب القامة, قوي الظَّهر, قادر على السَّير في طريق الحياة.

أرادت «جيهان» أن يُغيرا من جو الكآبة الَّذي يعيشان فيه طوال العام المنصرم, وقد كان الصَّيف حارًا قائظًا, فخطر لها أن يذهبا إلى الإسكندرية, يقضيا أسبوعًا, يتنسمان فيه نسمات البحر العليلة, لعل التَّفسح وتغيير الجو يُشفيان بعضًا ممَّا يعتمل في النَّفس, ويُذهب شيئًا من الكِدر والحزن المحلقان كطائري عقاب قبيحين في سماء حياتهما.

وفي ساعة السَّفر ألمَّت بالسَّائق وعكة صحية مفاجئة, وهو الَّذي كان يتقافز مثل قرد منذ قليل, ما جعل فكرة التَّأجيل تراودها, غير أنَّ التَّحفز الَّذي رأته على وجه «فايز», وأطياف الحماسة التي لونت ملامحه, جعلها تُحجم, وفكرت في القطار المميز كوسيلة بديلة, هي نفسها تحمست لها؛ لكونها لم تركب القطار طوال حياتها سوى مرات معدودة, ومنذ أمد بعيد, وبعد ساعة كان القطار منطلقًا, ينفث دخانه في حماسة, في طريقه إلى الإسكندرية.

جلست «جيهان» في حجرة مميزة ذات سريرين, بالقطار السَّريع, ينهب الطَّريق في اتجاه عروس البحر الأبيض المتوسط: «الإسكندرية», وقد بدا جليًا من قسمات وجهها المنبسطة, أنَّ تجربة السَّفر بالقطار راقتها, ورسمت أطياف الانشراح على محياها الحيادي, انقشع له الكثير من العتمة السَّاكنة على وجهها منذ فعلة «معتز» الكبرى, ونحره لها بسكين ما خطر لها ببال, ثُمَّ ما لحق هذه الحادثة من موت جاء مفاجئًا, أعقبه موت العم حزنًا على وحيده.

ما مرت به «جيهان»، جعلها تفكر؛ أنَّ بالحياة مفارقات وترتيب أحداث يفوق قدرة الخيال على النَّسج والتَّأليف، ففي فترة زمنية وجيزة تعاقبت عليها أمور جعلتها تعتقد أنَّها قُيدت لهذا الزَّمن، وأنَّ حياتها صارت رهينة هذه الفترة الرَّهيبة، وهي القوية المعتدة، الجبل الَّذي لا يهزه ريح، بيد أنَّها اهتزت وعصفت بها الأنواء واجتاحتها الدَّوامات. وجود «فايز» في حياتها كان الوتد الَّذي تشبثت به، فلم تستسلم للموت مثلما أخذ الزَّوج والعم.

وجعلت تتابع بنهم جائع، مشاهد الرِّيف والحقول الخضراء اليانعة المبتهجة بالهواء والشَّمس، حتى غلبها النُّعاس، فتمددت وغفت. في حين يطالع الفتى «فايز» المجلات المصورة التي وجدها في العربة حتى فرغ منها، وأصابه الضَّجر، فخطر له أن يتفسح في القطار، يقطع الوقت الَّذي يمر في بطء سلحفاة.

العربتان الأخيرتان في القطار درجة ثالثة، مخصصتان لعوام النَّاس، تلك الطَّبقة من البشر التي لم يرها «فايز»، أو يحتك بها يومًا، وفي الغالب لم يعلم بوجودها، فحياته محصورة بين أمكنة ثلاث: القصر، النَّادي، والمدرسة. يذهب إليهم في السَّيارة الخاصة، تنقله من فخامة وثراء إلى فخامة وثراء من لون آخر. دهاليز محددة معلومة، تتشعب في حياته المحددة هي الأخرى، لم تحد مرة عن نطاق نفوذ الأثرياء، ومناطق تواجدهم وتجمعهم.

رأى في وجوه رُكاب الدَّرجة الثَّالثة في القطار المميز سحن خدم القصر، مع اختلاف جلي كما الشَّمس لا يمكن تجاوزه. اختلاف ضارب في العمق، ليس في القسمات، فهي متشابهة، تكاد تكون واحدة.

الزَّمن أحال خدم القصر إلى بشر مدجنين، تلمع عيونهم بنظرة الطَّاعة، وتَلَون محياهم بأطياف الاستكانة والتَّسليم، يراهم الرَّائي في حركاتهم وسكناتهم مسكونين بالخضوع، لا يملكون من أمرهم شيئًا، ينتظرون الكلمة فينطلقوا، والإشارة فيتوقفوا، والنَّظرة الزَّاجرة فيرتدعوا. وفي المقابل كُفئوا بالملابس الزَّاهية والطَّعام الجيد، وطفت على أجسادهم ووجوههم شيئًا من سِمنة بليدة، لتفرقهم عن ذويهم، وترفعهم درجة.

خدم القصر كما ثور «الوسية»، يُكافأ بالفول والعلف؛ فيسمن ويخنع، ليدور ويدور، بخلاف ثور البرية الرَّاتع المُقتات في مراعي الأرض. فهذه الوجوه

البرية، المتكدسة في جوف عربتي الدَّرجة الثَّالثة، لم ينجح الزَّمن في ترويضها مثقال ذرة؛ ما جعله ينتقم لنفسه، فوسم الوجوه بندب الشَّقاء، وملأ العيون، التي هي نافذة الرُّوح، بالوجع والهم.

وجعل الصَّبي يتحلق حولهم، يدور مثل فراشة تستطلع لون جديد من زهور بائسة، باهتة اللَّون، غير أنَّها فائحة الرَّائحة، أو كأنَّه يشاهد السِّيرك للمرة الأولى في حياته. سرك يضم بين جنباته مهرجين كُثر، كل مهرج له قدراته الخاصة، وطريقته المتفردة في وضع المساحيق والألوان على وجهه، فيبدون جميعهم مختلفين ظاهرًا: هذا يجيد المشي على يديه، وهذا يمشي على أربع، وهذا يتقافز مثل قرد، وهذا يُلقي النِّكات، وهذا يشاغب ويمازح! ألوان متعددة من التَّواصل الإنساني الضَّاج بالسَّعادة ظاهرًا، فجميعهم يصخب، ويضج بالفرح الظَّاهر. يجدهم المرء صانعين جوًا فلكلوريًا مفعمًا بالبهجة، ومع التَّدقيق يظهر للرائي عن كثب أنَّها بهجة متواطئة، كما تمثيلية من سيناريو وحوار، كل يؤدي دوره المنوط به، بغض النَّظر عما يمور بين الحنايا من حزن وهم، أو يغُص به حلقه من علقم. يجد الرَّائي أنَّ هذا الضَّجيج المتلون بالسَّعادة مرسوم ومتفق عليه، وأنَّه مع بعض التَّدقيق، سيرى لمعة عيونهم الحزينة تُغالبها إرادتهم العفية، فلا تتفجر وتفور على بحيرات العيون في صورة دموع، وأنين، ووجع! وأنَّ القلب به ما به، وأنَّ اللِّسان الَّذي يُلعلع بالضَّحك والقفشات والنِّكات، هو واجهة جميلة مبهجة لبضاعة غير موجودة؛ ما يجعل الرَّائي يفكر أنَّهم يصنعون حالة من التَّوازن، فلا يسقطون في جُب الأحزان والهم. نوع من التَّكيف يجيده هذا الصِّنف من البشر، ولا غيرهم يجيده. وربما الطَّعام الرَّخيص الَّذي يحملونه، ويأكلون منه طوال الوقت، وكأنَّهم في صراع أبدي مع الجوع، وطريقة رشفهم للماء، والصَّوت المُنكر الَّذي تصدره شفاههم وحلوقهم، وانسيابه بشكل مضحك مقزز من الأشداق- كل هذا يدخل في إطار هذه الحالة العبثية من المقاومة.

وقف الصَّبي مشدوهًا يتابع ويتأمل في صمت، منفتح العينين عن آخرهما، كان «فايز» رهيفًا جدًا رغم حداثته، وقرأ الكثير من الخفي رغم البهرجة الظَّاهرة والدِّيباجة المبهرة، وكالمسحور المشدود لنداء نداهة ساحر، اقتعد

أحد المقاعد الشّاغرة, وقد ترك بعضهم المقاعد وافترش الأرض, بشكل لم يجد له الصَّغير تفسيرًا, لا يخطر له أنَّ هؤلاء الخلق يفكرون بمنطق مختلف؛ فهم من الأرض خلقوا, وإلى الأرض يعودون, وأنَّ أسباب الرَّاحة في رحلة ما, مهمًا كانت طويلة, لا طائل منها, وغير مجدية. فالحياة في عُرفهم نَصبْ منذ الصَّرخة الأولى المحتجة, وصولًا إلى شهقة الفراق الأخيرة, وأنَّ هنيهات الرَّاحة في المنتصف لن يكون من جراءها سوى مزيدًا من التَّعاسة, فالمقاتل يجب أن يظل منتصبًا مستعدًا صامدًا, فلا يسكنه الوهن والضَّعف.

كان الصَّبي متأثرًا غاية التَّأثر بما يقرأ على الوجوه البائسة بعينيه البريئتين, وجاء جلوس العجوز بجواره ليزيد الطِّين بله, ويؤرق مضجعه لأيام وسنين, ورُبما ما كُتب ل»فايز» أن يحيا على هذه الأرض.